الاستحكامات الحربية
بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية

دكتور

عبد الله كامل موسى عبده

مدرس الآثار الإسلامية

كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادى

الاستحكامات الحربية
بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية (*)

يهتم موضوع هـذا البحث بدراسة الاستحكامـات الحربية بالثغور المصريـة فى العصر الأيوبى ، خاصة هذه الاستحكامات ولم تحظ بقدر كاف من عناية العلماء والباحثين خلال الفترة موضوع الدراسة ، فى حين استأثرت قلـعة الجبل وأسوار صلاح الدين باهتمام عدد كبير من الدراسات والبحوث ، من الناحيتين التاريخية والأثرية. وبالتالى فإن موضوع هذا البحث يلقى الضـوء على الاستحكامات الحربية بمصر وبخاصة فـى العصر الأيوبى وحتى طرد آخر البـقايا الـصليبـية من بلاد الـشام ، فمنـذ وقت مبكـر فى فجر الإسـلام أثرت العلاقات مع الدولة البيزنطية من جهة ، والـظروف السياسية فى العالم الإسلامى من جهة أخرى على العمائـر الحربية فشيدت الحصون والأربطة والأسوار والـقلاع والأبراج وغيرها فى داخل الـبلاد وعلى حـدود مصر وفى المـوانى كالاسكـندرية ودميـاط وتنيس والـفرما واشتوم والبـرلس وبلبيس والسويـس وشبه جزيرة سينـاء وغيرها ، مما هو جدير بـالبحث والدراسة .

مقدمة : الاستحكامات الحربية بمصر حتى أواخر القرن الخامس الهجرى :

لم يفكر عمرو بن العاص فى تحصين الـفسطاط « أول حاضرة إسلامية لمصر بسور » بعد أن استقرت له الأمور بالاستيلاء على الاسكنـدرية «عاصمة مصر فى العصر البيزنطى» نظراً لما سـاد العلاقـات بين الـعرب المسلمين والمسـيحيين مـن أهل البـلاد من علاقات طيبة، وهكذا لم يهتم المسلمون بأمر حصـن بابليون وهو حصن الروم الرئيسى فى مصر ،

(*) بحث ألقى فى ندوة اتحاد المؤرخـين العرب بالقاهرة « الإطار التاريخى للحركة الـصليبية » بعنوان « العمارة الحربية بمصر فى عصر الحروب الصليبية » ٥-٧ رجب ١٤١٦ هـ / ٢٨-٣٠ نوفمبر ١٩٩٥م.

والذى كان ينعم بكافة أسباب المنعة والقـوة ففقد أهميته ، وتحول الحصن بمرور الوقت إلى خطة من خـطط الفسطاط ومركزاً لـعدد من الكنائس مثـل المعلقة والقمارية وبربارة وأبى سرجة وبذلك فقد أهميته كمؤسسة حربية[١] .

ويعد الحصن الذى أنشـأه عمرو بن العاص بالجيزة فى عام ٢٢ هـ / ٦٤٣ م بأمر من الخليفـة عمر بن الخطاب رضى الـله عنه ، لتأمين هـمدان ومن والاها عندما أحـبوا المقام بالجيزة ، أول حصن داخلى يشيد بمصر الإسلامية[٢] .

ولـم يستسـلم البيـزنطيون لـضياع مصـر ، وإنما حاولوا فـى عام ٢٥ هـ / ٦٤٥ م استردادها ، فاستولوا على الاسكندرية وزحفوا فى الداخل حتى اقتربوا من حصن بابليون والفسطـاط ، الأمر الذى جعل الخليـفة عثمان بن عفـان رضى الله عنه يرسـل عمرو بن العاص سريعاً إلـى مصر ، وعندئذ تحصن البيزنـطيون بالاسكندرية ونصبـوا المجانيق على أسوارها ، وامتـنعت المدينة عـلى المسلمين بسـبب قوة تحصينـاتها الحربية ، ولـكن عمرو استطاع فى عام ٢٦ هـ / ٦٤٦ م اقتحام المدينـة ، وكان أول عمل قام به هو هدم أسوارها المنيعة[٣] .

---

(١) ابن دقماق (إبـراهيم محـمد بن ايدمر الـعلائى) ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م : الانـتصار لواسطـة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها ، جـ ٤ ، ص ١٠٧ ، بولاق ، القاهرة ، ١٣١٠ هـ / ١٩٨٢ م. ، د. فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، المجلد الأول ص ٣٣٩ ، ٥١٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .

(٢) ابن عبد الحكم (أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م : فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمـد صبيح ، ص ٩١ ، دار التعـاون ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ ، المقريزى (تقـى الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المـعروف بالخطط المقريزية جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ م ، د. حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٥٦ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

(٣) د. إبـراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية ، ص ٥٠-٥١ ، وزارة الثقافة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٩٢ م ، د. عليـة عبد السـميع الجنـزورى : غارات أوربا علـى الشواطئ المـصرية فى الـعصور الوسطى ، ص ١١-١٢ (تاريخ المصريين ٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م .
د. محمد جـمال الدين الشيال : الاسكـندرية ، طوبغرافية المـدينة وتطورها من أقدم الـعصور إلى الوقت الحاضر ص ١٤ ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى ، أكتوبر ١٩٤٩ م .

ويرى بعض الباحثين أن ما ذكر عن هدم عمرو بن العاص لأسوار الاسكندرية غير صحيح ، حيث يرجح أن الهدم وقع أثناء الحصار من الجهتين الشرقية والغربية ، ولكننى أرجح أن عمرو بن العاص ربما يكون قد هدم أسوارها المنيعة فعلاً ، وأن هذا الهدم ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتحصن الروم داخلها للمرة الثانية وامتناع المدينة على المسلمين ، إذ خشى عمرو أن يعود الروم إليها مرة أخرى ، بدليل أن عمرو عندما فتح المدينة فى المرة الأولى ترك أسوارها على حالها وعمر ما تهدم منها أثناء الحصار[1] .

وكان أن ظهر فى الفسطاط نوع من العمائر الحربية أطلق عليها اسم « المحارس » منها محرس عمار ، محرس بنانة ، محرس الحريص ، محرس النخل ، محرس قسطنطين ، محرس خوى بن خوى ، ومن المرجح أن هذه المحارس كانت منشآت بسيطة بوسط خطط القبائل أو على حدودها ، ويعمل بها رجال يتولون حراسة كل قبيلة ، أو أنها كانت نقاط متفرقة فى الفسطاط لأقامة الجند لحراستها ، إلا أنها لم تكن حصوناً أو قلاعاً كبيرة[2] .

وفى عهد والى مصر مسلمة بن مخلد ، نزل الروم « البيزنطيون » بالبرلس فى عام ٥٣ هـ / ٦٧٣ م الأمر الذى جعل المسلمين يلجأون إلى تشييد دار لصناعة السفن بمصر فى جزيرة الروضة فى السنة التالية كى يتم بناء السفن الحربية بها ، وقد أقيمت بالاسكندرية دار أخرى لصناعة السفن فى عهد الوالى عبد الله بن سعد[3] .

وقد وردت أقدم أشارة إلى تحصين الفسطاط عندما أحيطت بخندق فى غرة المحرم عام ٦٥ هـ / ٦٨٥ م ، حفره عبد الرحمن بن جحدم عامل ابن الزبير على مصر ، أيام الصراع بين ابن الزبير فى مكة والأمويين فى الشام[4] .

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة جـ ٧ ، مدينة الاسكندرية ، ص ١١٦ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م ، د. جمال الدين الشيال : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٥-٢٩ ، د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٥١٩ .

(٣) د. جمال الدين الشيال : المرجع السابق، ص ٢١٤، د. علية عبد السميع: المرجع السابق ، ص ١٧

(٤) يعد الخندق من العناصر الدفاعية الهامة فى العمارة الحربية لتحصين المدن والقلاع ، وقد عرف المسلمون حفر الخنادق منذ فجر الإسلام ، إذا حيطت المدينة المنورة بخندق فى عام ٥ هـ / ٦٢٦ م، وشاع استخدام الخندق بعد ذلك خاصة خلال الحروب الصليبية لما يؤديه من دور دفاعى هام . المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٥٨ ، د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٥١٨ .
د. عبد الرحمن زكى : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ص ١٠٧ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨ م .

وفى العصر العباسى شيد الخليفة المتوكل على الله حصناً بدمياط ، وشرع فى بنائه فى رمضان عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م ، وقد بنى هذا الحصن بالحجر ، وأورد المقدسى عنه ما نصه « عليها حصن من الحجارة كثيرة الأبواب وفيها رباطات كثيرة »[١] ، كذلك شيد المتوكل حصناً على البحر بتنيس ، كما شيد حصناً آخر فى الفرما . وقد تولى عمارة هذه الحصون والى مصر عنبسة بن اسحاق ، يقول المقريزى عند ذكره حصن تنيس ما نصه « وانفق فيه وفى حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً »[٢] ، وقد جاء تشييد هذه الحصون عندما ملك الروم دمياط وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين فى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، ثم هاجموا تنيس ، إلا أن التيار أفسد خطتهم فاتجهوا إلى أشتوم وكانت مركزاً حصيناً له سور وأبواب حديدية كان الخليفة المعتصم قد أقامها فى تلك النواحى[٣] . (شكل ١)

ويتضح من هذا أن بناء الحصون فى دمياط وتنيس والفرما أرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعرضها لهجوم الروم ، وإن كانت هذه الموانى قد سبق وتعرضت لعدة هجمات من جانب الروم بعد الفتح العربى ، إلا أن بناء هذه الحصون عقب حملة الروم فى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م جاء نتيجة أبيات من الشعر قالها يحيى بن الفضيل للمتوكل تعبر عن الفظائع التى أرتكبها الروم فى دمياط أذكر منها هذا البيت الأخير ونصه :

فلا تنسنا أنا بديار مضيعة بمصر وأن الدين قد كاد يذهب[٤]

(١) المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى) ت حوالى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٢٠٢ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م . الأربطة فى أصلها منشآت دينية وعسكرية يقيم بها المحاربون للتعبد والاستعداد للجهاد والتربص لأعداء الإسلام الذين يغيرون على بلادهم ، وقد اشتق اسمها من الآية الكريمة « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (سورة الأنفال آية ٦٠) ، وكذلك من قول الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (سورة آل عمران آية ٢٠٠) د. حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(٣) اقتحم الروم حصن اشتوم وخربوا معظمه وأحرقوا ما كان به من الآلات الحربية ، وأخذوا بعض الأبواب الحديدية إلى بلادهم . المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ ١١ ، ص ٩٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ م . ، د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ . د. علية عبد السميع : المرجع السابق ، ص ٢٠-٢٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ . د. علية عبد السميع : المرجع السابق ، ص ١٧-١٩ . د. جمال محمود مرسى : من جديد حول حصن الخليفة المتوكل على الله العباسى بدمياط ص ٢٢٧-٢٣٥ (مجلة التاريخ والمستقبل) ، المجلد الرابع ١٩٩٤ م ، كلية الآداب ، جامعة المنيا .

ولقد كانت دمياط عندما فتحها عمرو بن العاصى محصنة ذات أسوار منيعة شأنها فى ذلك شأن الاسكندرية ومعظم الحصون الأخرى على شاطئ البحر الأبيض ومنها الفرما وبلبيس ، وقد ظلت مدينة تنيس بدون سور يحميها حتى عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م عندما شرع والى مصر عيسى بن منصور فى خلافة الواثق بن المعتصم فى تشييد سورها ، وكان الفراغ من عمارته فى عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م فى ولاية عنبسة بن اسحاق[١] . ومع هذا ، فإنه يبدو أن هذه الحصون التى أنشأت فى وقت مبكر قد أهملت بمرور الوقت حتى عهد الخليفة المتوكل على الله الذى أمر بإعادة تحصينها .

وفى عام ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م شرع ابن طولون فى تشييد حصن بجزيرة الروضة لتحصين العاصمة من الجهة الغربية فى موضع الحصن القديم الذى كان قائماً وقت فتح مصر وذلك عندما احتدم النزاع بينه وبين العباسيين ولكنه لم يتمه[٢] .

ومع ذلك ، فإنه يبدو أن الإجراءات الدفاعية التى اتخذت فى ثغور مصر « دمياط وتنيس والفرما وغيرها » فى ذلك الدور كانت إجراءات مؤقتة وليست دائمة ، إذ كانت تفتر العناية بها بمجرد زوال خطر الروم الذين هاجموا دمياط وتنيس أكثر من مرة ، كان أخرها فى عام ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م[٣] .

ويعد عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م عندما شرع الفاطميون فى فتح مصر - البداية الفعلية لتحصين حواضر مصر الإسلامية ، إذ بادر جوهر الصقلى بتحصين القاهرة ليقيم فيها مولاه المعز لدين الله الخليفة الفاطمى واتباعه وقواده وجنده ، وليدافع أيضاً عن الفسطاط وامتدادها شمالاً إلى العسكر والقطائع من خطر القرامطة[٤] ، كان سور القاهرة الذى شيده

(١) ياقوت الحموى (شهاب الدين ابن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى) ، ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٨٨٣-٨٨٤ ، طهران ، ١٩٦٥ م .

(٢) كان ابن طولون يشرف بنفسه على بناء الحصن ، وبعد أن علم بموت موسى بن بغا قائد الجيش المجهز لمحاربته فى عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م أوقف العمل فيه ، وكان قد استمر لمدة عشرة أشهر وبلغت النفقه عليه ٨٠,٠٠٠ دينار ، وظل قائماً حتى تهدم مع توالى فيضان النيل ويرجح أنه كان فى طرف الجزيرة الجنوبى بجوار المقياس . البلوى (أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى) : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، ص ٨٦-٨٨ ، مكتبة الثقافة الدينية ، ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ١٠٩ ، د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٥٢٠ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١١ ، ص ٩٣ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٦١ ، د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ، د. إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية ، ص ١٣٣ .

جوهر الصقلى من الطـوب يشكل مستطيلاً غير منتظم الأضلاع ، يـبلغ طوله من الشرق إلى الغرب حوالى ١١٠٠ م ، ومن الـشمال إلى الجنوب حوالى ١٢٠٠ م ، وكان عرض الجدار فيه يزيد قليلاً عن مترين ، وكان به ثـمانى بوابات : بابان شمالاً وهما باب الفتوح وباب النصر ، وبـابان شرقاً وهما باب البرقـية وباب القراطين ، وبابان غـرباً ، هما باب الفرج وباب سعادة ، وبابان جنوباً ، هما بابـا زويلة ، وقد ضم هذا السور بداخله القصر والجامع والدواوين وخطط القبائل التى قدمت بصحبة جوهر[١] . (شكل ٢)

كذلك قام جـوهر بحفر خندق فى الجهة الشـمالية فى عام ٣٦٠ هـ / ٦٧١ م ، ثم حفر خندقاً آخر أمامه ، ونصب عليه باباً حديدياً يدخل منه ، كذلك أعاد حفر خندق فى القرافـة جنوب شرق الفسـطاط ، وكان أن تحصن جـوهر بالقاهـرة وأغلق أبوابها عـندما هاجمها القـرامطة فى ربيع الأول عام ٣٦١ هـ / ديسمبر ٩٧١ م ، ولم يسـتطع القرامطة دخول المدينة ، ودار القتال عند الخندق[٢] ، مما يدل على أن السـور قد أدى الغرض الذى شيد من أجله ، وقام بدوره كما يذكر المقريزى « ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المـدينة »[٣] ، وقد أشار المـقدسى إلى قوة تحصـين القاهرة بقولـه أن « بها جامع بهى وقـصر السلطان وسطها ، محـصنة بأبواب محددة على جـادة الشام ولا يمكن أحداً دخول الفسطاط إلا منها لأنهما بين الجبل والنهر »[٤] .

كذلك شـرع بدر الجمالـى فى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م فـى تجديد سور الـقاهرة ،

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٦١ ، بول كازانوفا : تاريـخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة د. أحمد دراج ، ص ٣٥-٤١ ، الهيئة المـصرية العامة لـلكتاب ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، د. أحمد فـكرى : مساجد القاهرة ومـدارسها ، جـ ١ ، العصر الـفاطمى ، ص ٢١ ، دار المـعارف بمصر ، أسـامـة طلعت عبد الـنعيم خلـيل : أسـوار صلاح الديـن وأثرها فـى أمـتداد القاهرة حتـى عصر المماليك ص ٩-١٦ . مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ، جـ ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ ، على باشا مبارك : الخطـط التوفيقية ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، ١٩٨٠ م .

(٣) المقريـزى : الخطـط ، جـ ١ ، ص ٣٦١ ، د. عـبد الرحـمن زكـى : القاهـرة تاريخـها وآثـارها (٩٦٩-١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجـبرتى المؤرخ ، ص ١٠ ، الدار المـصرية للتأليف والـترجمة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

(٤) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

وشيد جزءاً من الأسوار الشمالية على بعد ١٥٠ م تقريباً إلى الشمال ، كما شيد جزءاً من الأسوار الجنوبية على بعد ١٥٠ م تقريباً إلى الجنوب ، وتم بناء أسوار بدر الجمالى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . وقد بنيت أجزاء من السور باللبن ، كما بنيت اجزاءًا أخرى منه بالحجر ، وقد أنشأ بدر ثلاث بوابات من الحجر ما تزال قائمة إلى اليوم هى باب النصر وباب الفتوح شمالاً ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وباب زويلة جنوباً ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م[١] . (شكل ٢ ، ٣) .

ويبدو أن بدر الجمالى تأثر عند تحصينه القاهرة بالتحصينات الحربية السلجوقية فى بلاد الشام ، خاصة فى استخدام الحجر ، حيث بلغت هذه التحصينات مرحلة كبيرة من التطور وكان بدر الجمالى قد ولى قبل مجيئه إلى مصر بلاد الشام وتقلد إمارة دمشق[٢] .

أثر الحملات الصليبية على مصر حتى وزارة صلاح الدين :

وهكذا حتى بدأت الحروب الصليبية فى الشرق وجاءت الحملة الصليبية الأولى فى عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م وفى تلك الحقبة كانت ظاهرة بناء الحصون والقلاع فى غرب أوربا قد أخذت تزدهر فى ظل النظام الأقطاعى حتى أطلق على ذلك العصر اسم عصر القلاع ، فكان لكل اقطاعى قلعته التى يحتمى بها ومعه اتباعه وعتاده[٣] .

وكان أن وصل الصليبيون إلى شمال الشام فى عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ، ثم تمكنوا من تأسيس عدة إمارات صليبية فى الشرق العربى وهى إمارة الرها ، وإمارة انطاكية وإمارة طرابلس ، فضلاً عن دولة فى بيت المقدس التى سقطت فى أيديهم سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م[٤] . (شكل ٤) .

وقد شيد بلدوين أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (١١٠٠ - ١١١٧ م / ٤٩٤

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ ، د. أحمد فكرى : مساجد القاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٤-٢٨

(٢) د. محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، ص ٢٧٠-٢٧١ ، دار المعارف بمصر . د. منى محمد بدر : أثر الفن السلجوقى على الحضارة والفن فى العصرين الأيوبى والمملوكى فى مصر ص ٤٦ ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١ م. .

(٣) د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ص ٥١ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر القاهرة ١٩٦٩ م . .

(٤) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧١ .

- ٥١١ هـ) فى عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م قلعة حصينة فى أيلة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون قبالة أيلة فى خليج العقبة وبذلك تمكن من الأشراف على شبه جزيرة سيناء ، ثم هاجم مصر ، وقد شهدت هذه المرحلة أزدهاراً كبيراً فى تشييد الحصون والقلاع الصليبية للحفاظ على المملكة اللاتينية عقب سقوط بيت المقدس[١] .

وقد تأثر الصليبيون بالعمارة الحربية فى نيقية وفى أنطاكية عندما استولوا على المدينتين ، حيث بلغت العمارة الحربية من حصون وقلاع أوج أزدهارها على يد البيزنطيين ثم السلاجقة ، وقد كان أهم ما يميز القلاع الصليبية استخدام الحصن النورمانى المربع وتشييد سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة ، وكانت هذه الأبراج من السمات البارزة فى التحصينات الحربية الصليبية ، وقد كانت الأبراج الصليبية تتألف من طابقين وشرفة[٢] .

أدرك الأفضل طبيعة الحركة الصليبية بعد سقوط بيت المقدس ومهاجمة مصر ، إلا أنه قتل فى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، ولم يبق بيد مصر من بلاد الشام سوى صور وعسقلان ، ولم يأل الوزير ابن السلار جهداً فى محاربة الصليبيين فجهز فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م أسطولاً أنفق عليه ٣٠,٠٠٠ دينار لمحاربتهم بسبب تخريبهم مدينة الفرما فى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م[٣] .

وباتجاه الصليبيين نحو مصر ، ومحاولتهم غزوها عدة مرات ، ونشاط البحرية الصليبية فى شرق حوض البحر المتوسط صار لابد من العناية بالتحصينات الحربية فى الثغور المصرية فأجريت بعض التجديدات المعمارية فى سور الاسكندرية فى آخر عهد الآمر الفاطمى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، حيث كانت الاسكندرية مقر أسطول الخلافة الفاطمية ، كما شهدت مدينة بلبيس فى عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م عمارة حربية على يد الصالح طلائع ، فقد أورد المقريزى ما نصه « وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصناً من لبن »[٤] ، وقد حدث حين شهدت

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ص ٣٥ - ٣٦ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٦٩ م ، د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٦٦-٦٧ .

(٢) د. عبد الرحمن زكى : القلاع ، ص ٥٦-٥٧ .

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية - الطبعة الثانية ، جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٤ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ٩ ، ص ١٩٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م .

هذه المدينة الحصينة حصار الجيوش الصليبية لها عندما تحصن بها أسد الدين شيركوه أن صمدت المدينة مدة ثلاثة أشهر نظراً لقوة تحصينها وشجاعة شيركوه ، حتى اضطر الصليبيون إلى فك الحصار والعودة إلى بلادهم[١] .

وجدير بالذكر أن مادة البناء الرئيسية فى بلبيس فى عمائرها الدينية والمدنية والحربية كانت من اللبن وهو الأمر الذى يتضح من خلال ما ذكره المقدسى ونصه « بلبيس قصبة الحوف كبيرة كثيرة القرى والمزارع عامرة بنيانهم من طين »[٢] .

الاستحكامات الحربية فى عهد صلاح الدين الأيوبى :

فزع الصليبيون بالشام لنجاح قوات نور الدين محمود فى السيطرة على مصر ، فاتجهوا نحو الدولة البيزنطية وعقدوا معها تحالفاً لغزو مصر واقتسامها[٣] .

وكان صلاح الدين قد سيطر على الموقف فى مصر بعد وفاة أسد الدين ولقب بالملك الناصر ورسخ ملكه بوصفه نائباً عن الملك العادل نور الدين . وكانت أولى الحملات الصليبية على مصر فى وزارته فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، عندما هاجم الصليبيون دمياط ومعهم المنجنيقات[٤] والدبابات[٥] وآلات الحصار وغير ذلك ، ولكن الأسطول

(١) أبو شامة (شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى) : ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م : الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ ١ ، ص ١٣١-١٣٢ ، دار الجيل بيروت د. الشيال : المرجع السابق ، ص ٢١٦-٢١٨ .

(٢) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(٣) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ٢٢ - القاهرة ١٩٩٢ م . .

(٤) المنجنيق آلة قاذفة تصنع من الخشب ، ويتكون من قاعدة مربعة أو مستطيلة ، يرتفع فى وسطها عمود خشبى قوى ثم تركب فى أعلاه ذراع تتحرك إلى أعلى وأسفل ، ويوجه فى أحد طرفيها وعاء نصف كروى يتناسب حجمه مع هيكل المنجنيق وتوضع فيه المقذوفات من حجارة أو حديد أو أوعية النفط ، ويتدلى فى الطرف الآخر لذراع ثقل التوازن ، وكان المنجنيق فى العصر الأيوبى ثلاثة أنواع هى العربى والتركى والفرنجى . انظر مزيد من التفاصيل . أسامة طلعت : المرجع السابق ، ص ٢١٧ هامش ٢ .

(٥) مفردها دبابة وهى آلة متحركة تصنع من الخشب السميك ، وتغطى بالجلود المشربة بالخل لوقايتها من النيران ، وتركب على عجلات ويدخلها الجنود ليدفعونها نحو الأسوار لكى تقيهم مما يرمى عليهم ، وحين يصلون إلى الأسوار يعملون على نقبها وهدمها من داخل الدبابة بما يحملون معهم من الات . المرجع نفسه : ص ٢٢٦ هامش ١ .

البيزنطى لم يستطع دخول الميناء لوجود السلاسل الحديدية الممتدة بعرض مجرى النيل . وبينما أرسل صلاح الدين الامدادات إلى دمياط سارع بتحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية وأخذ يشن عليهم الغارات من الخارج ، فى حين توجه نور الدين لمهاجمة الصليبيين فى الشام ليصرف نظرهم عن مصر فحاصر الكرك وعندئذ رجع الصليبيون عن دمياط[١] .

وكان أن بدأ صلاح الدين تحصيناته الحربية بالثغور المصرية فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م عندما توجه إلى الاسكندرية ليتفقد أحوالها ويرتب قواعدها خوفا من سير حملة صليبية إليها بعد فشل الحملة الصليبية على دمياط فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م . وفى ذلك يذكر أبو شامة ما نصه « وهى أول دفعة سار إليها فى أيام سلطانه وعم أهلها باحسانه وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها »[٢] وكان صلاح الدين قد تحصن بالاسكندرية فى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م عندما حاصرته الجيوش الصليبية فكان على علم ودراية بها وبأحوالها فأدرك مدى حاجتها إلى التحصين والعمارة فى مواجهة الحملات الصليبية. وقد أزدهرت مدينة الاسكندرية ازدهاراً عظيماً خلال عصر صلاح الدين ، فقد أورد ابن جبير ما نصه « من مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد »[٣] .

كذلك شهد عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م أيضاً العمل فى تحصين القاهرة وعمارة سورها ، وتمثل هذه العمارة المرحلة الثالثة فى عمارة سور القاهرة خلال العصر

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٣٢-٣٣ ، مطبعة الأداب والمؤيد ، مصر ١٣١٧ هـ ، أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٠-١٨١ ، ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف) ت ٨٧٤ هـ : والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٦ ، ص ٧ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى . ، د. سعيد عاشور : شخصية الدولة ، ص ٦٢-٦٣ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

(٣) ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد) ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م : رحلة ابن جبير ، ص ٥١ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، ق ١ ، ص ٦٤ ، نشر محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية .

Creswell (K.A.C.) The Muslim Architecture of Egypt, II, Ayyubids and early Bahrite Mamluks, Oxford, 1959, p. 2.

الفاطمى ، فقد أورد المقريزى عند ذكره السور الثالث ما نصه « ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسمائة وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله [١] .

أما المرحلة الرابعة فى عمارة سور القاهرة فقد كانت فى سلطنة صلاح الدين على يد الأمير بهاء الدين قراقوش فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، فقد أورد أبو شامة ما نصه « لأنه قد تهدم أكثره وسار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً وولاه لقراقوش الخادم »[٢] وفى ذلك يذكر المقريزى ما نصه « فلما كانت سنة تسع وستين وقد استولى على المملكة أنتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن »[٣] . ويبدو أن صلاح الدين كان يخشى عندئذ مهاجمة الصليبيين للقاهرة مرة أخرى، بعد هجومهم عليها فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، خاصة وأن الصليبيين قاموا بهجومهم على القاهرة بعد أن تبينوا ضعف تحصيناتها الحربية، حتى أنهم قالوا « مصر ليس لها معقل »[٤] (شكل ٣) .

وكان للتحصينات الحربية التى بدأها صلاح الدين بالاسكندرية أكبر الأثر فى هزيمة الصليبيين فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عندما هاجم أسطول صقلية المدينة فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣[٥] .

وعندما أدرك صلاح الدين ضرورة تحصين القاهرة والفسطاط معاً قرر بناء قلعة منيعة فى الوسط وبذلك تم تعديل مشروع إعادة تحصين القاهرة الفاطمية فى عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ليحيط السور بالمدينتين معاً (شكل ٥) ، وتخير للقلعة موضعاً مرتفعاً يتوسطها (شكل ٦) حيث أيقن صعوبة الدفاع عن المدينتين فى وقت واحد ، كما أدرك أنه لو شيد

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٣٧٩ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ، ابن الاثير (أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) : تاريخ الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٥٥ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٨-٧٩ .

لكل واحدة منهما سور مستقل لاحتاجت كل منهما إلى قوات منفردة للدفاع عنها[١] .

وقد ذكر البعض أن سبب الحرص على أقامة هذه التحصينات الحربية القوية هو تخوف صلاح الدين من شيعة الفاطميين بمصر[٢] ، وقيل بل تخوفه من الصليبيين[٣] ، وقيل بل تخوفه من شيعة الفاطميين والصليبيين معاً[٤] .

ويبدو أن الرأى الثانى هو الأرجح ، بدليل ما تميزت به تلك العمارة الحربية من قوة وضخامة بحيث ظل العمل جارياً فيها إلى أن توفى صلاح الدين فى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وكانت بعض أجزاء منها لم تشيد بعد ، فقد أدرك صلاح الدين أن الصليبيين طمعوا فى الاستيلاء على مصر خلال حملتهم عليها فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بعد أن تبينوا ضعف استحكاماتها الحربية .

ومن الواضح أن صلاح الدين تأثر فى تحصيناته الحربية بمثيلاتها فى بلاد الشام ، حيث بلغت هذه التحصينات أوج إزدهارها بسبب الحروب الصليبية . وكان لكل مدينة فى بلاد الشام قلعتها أو حصنها ، وشاهد صلاح الدين هذه الحصون والقلاع قبل مجيئه إلى مصر ، فأعجب بها ، وقرر محاكاتها فى مصر .

وفى زمن صلاح الدين ، وفد الرحالة ابن جبير على مصر ، فشاهد بعض عمليات بناء القلعة وبهرته طريقة أقامتها ، وكذلك حفر خندقها ، حيث أورد ما نصه « وشاهدنا

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ق ١ ، ص ٨٥-٨٦ .
Lane Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages, London 1901, p. 195.,
Devonshire (R.L.) : L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses monuments, Paris, 1926, pp. 54-55.
صادق محمد طه : دراسة معمارية تحليلية لقلعة الجبل (صلاح الدين) بالقاهرة ص ١٢ ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة حلوان ، كلية الفنون الجميلة ، ١٩٨٣ م . ويذكر الباحث أسامة طلعت أنه يمكن تحديد تاريخ صدور الأمر ببناء السور ليحيط بالقاهرة والفسطاط بالفترة ما بين ١٦ ربيع الأول ٥٧٢ هـ / ٢٣ سبتمبر ١١٧٦ م و ٢٢ شعبان ٥٧٢ هـ / ٢٥ فبراير ١١٧٧ م . مزيد من التفاصيل انظر . أسامة طلعت : المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣) د. أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ٢ ، ص ٧-٨ ، دار المعارف بمصر .

(٤) كازانوفا : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

أيضاً بنيان القلعة وهو حصين يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمتد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة[1] .

كذلك أعطانا ابن جبير وصفاً رائعاً للقناطر التى بدأ تشييدها صلاح الدين غرب مصر فى عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، فقد أمر ببناء جسر حجرى على شاطئ النيل الغربى ومد منه قناطر بالجيزة بنيت بالحجر من أربعين عقد لتمر من عليها الجيوش والامدادات من العاصمة إلى الاسكندرية إذا ما تعرضت لهجوم ، خاصة وقت فيضان النيل ، فقال ما نصه « ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التى شرع فى بنائها بغرب مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ من حيز النيل بأزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها إلى الاسكندرية ، وله فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة أعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكاً فى كل وقت أن احتيج إلى ذلك »[2] .

أما ابن دقماق فقد ذكر عن هذه القناطر بالجيزة ما نصه « هذه القناطر عجيبة ما رؤى مثلها فى سائر الدنيا وهم أربعون قوساً سطراً واحد عمرها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب وكان شاد عمارتها الأمير أبو زبا وتعرف هذه القناطر به »[3] .

وقد أورد المقريزى أن ثلاثة عقود من هذه القناطر تأثرت فى عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م بسبب عدم خبرة من تولى أمرها ، وقام بتجديد هذه القناطر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، كما قام بعمارتها الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وفى ذلك يقول المقريزى ما نصه « وفى سنة ثمان وسبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها فعمر ما خرب

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٣-٢٤ ، د. محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين ، ص ١٥١ ، الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٥-٢٦ .

(٣) ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢٦-١٢٧ .

منها وأصلح مَا فسد فيها فحصل النفع بها »[١] ، كما جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

وفى يوم الأربعاء ٢٢ شعبان عام ٥٧٢ هـ / ٢٥ فبراير ١١٧٧ م توجه صلاح الدين إلى مدينة دمياط لتفقد تحصيناتها الحربية وبقية عمائرها الدينية والمدنية ، ومنها توجه إلى ثغر الاسكندرية ليتفقد أيضاً تحصيناتها الحربية وعمائرها الدينية والمدنية وأشار إلى ذلك أبو شامة فقال « شاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر »[٣] .

وقد شهدت بقية الثغور المصرية على يد صلاح الدين من العناية والرعاية بتحصيناتها الحربية فضلاً عن عمائرها الدينية والمدنية ما جعلها تقوم بدورها تماماً فى الدفاع عن مصر ضد الصليبيين ، وفى ذلك يقول أبو شامة ما نصه « وما أنصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الأسطول »[٤] . (شكل ٧)

ونذكر من هذه الثغور على سبيل المثال ثغر البرلس الذى يقع على شاطئ البحر المتوسط بين دمياط ورشيد والذى شيدت به قلعة حصينة على شاطئ البحر اشتهرت بين الأهالى بالبرج[٥] . (شكل ٧)

وقد ظلت مدينة الاسكندرية موضع عناية ورعاية صلاح الدين الذى توجه إليها فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م لتفقد أحوالها تلك العناية والرعاية التى بدأت منذ وزارته للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ، فقد أورد أبو شامة ما نصه « وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها وأمر بالاتمام والاهتمام »[٦] ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن منشآت الاسكندرية الحربية تميزت بالضخامة والفخامة شأنها فى ذلك شأن التحصينات الحربية فى داخل البلاد التى ظل العمل جارياً فيها إلى أن توفى صلاح الدين فى صفر ٥٨٩ هـ / مارس ١١٩٣ م . وذلك حتى تستطيع القيام بدورها على الوجه الأكمل فى تأمين حدود مصر الشمالية .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) ابن دقماق: المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢٦-١٢٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ١٧٧ ، هامش ١ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ق ١ ، ص ٨٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٤٨ هامش ١ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤ .

كذلك عنى صلاح الدين بأمر بقية ثغور مصر على البحر المتوسط فى منشآتها الدينية والمدنية والحربية فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، للغرض ذاته وهى العناية التى بدأ صلاح الدين يوليها لها منذ سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، ففى هذا العام عنى بأمر دمياط ، فكتب إلى واليها بترتيب المقاتلة على البرجين وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها ، وتم ترميم سور المدينة ، واتقنت السلسلة التى بين البرجين فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار ، وكان قياس السور (٤٦٣٠) ذراعاً ، كذلك كمل بناء البرج بالسويس ليسع عشرين فارساً ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التى يجلب منها الشب[١] إلى بلاد الصليبيين ، كما عمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادة عمارته فجاء ثلاثة آلاف دينار[٢] . (شكل ٧)

أما مدينة تنيس فقد شهدت فى هذا العام عمارة حربية هامة ، حيث قام السلطان صلاح الدين بعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات ، وكان سبب هذه العمارة هو خوف أهل تنيس من الأقامة بها[٣] نظرا لضعف استحكاماتها الحربية.

وأهتم صلاح الدين بعمل مراكز محصنة فى شبه جزيرة سيناء (شكل ٨) وهى المنطقة الصحراوية التى تفصل بين مصر ومملكة الصليبيين بفلسطين ، والممتدة إلى حدود مصر فى صحراء النقب فأمر بأنشاء قلعة صلاح الدين بالقرب من موقع رأس الجندى فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، لوحة (١ ، ٢) .

وقد جاء تخطيط القلعة مستطيل الشكل ، يبلغ سمك سورها الخارجى ٢ م ، ودعمت أركان القلعة بأبراج وعلى مدخلها يوجد النص التذكارى الذى يحمل اسم صلاح الدين وتاريخ البناء ، وكذلك النقش لشكل السيف والدرع اللذين اتخذهما صلاح الدين شعاراً لدولته ، وهناك قلعة أخرى بسيناء تعرف بقلعة فرعون تشبه قلعة صلاح الدين السابقة ، ويرجح أنها شيدت بأمر صلاح الدين أيضاً[٤] . لوحة (٣ ، ٤)

(١) كان معدن الشب من محتكرات الدولة المصرية يستخرج من أسوان والواحات ويحمل إلى سواحل قوص وأخميم وأسيوط لينقل إلى الاسكندرية فيباع أكثره لتجار بلاد الفرنج . المقريزى : السلوك : جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٥ هامش ٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٥ ، السلوك : جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٥-٩٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٣٢ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .

(٤) د. عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، ص ١١٧-١٢٣ ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ م ، د. مصطفى عبد الله شيحه : الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى =

وفى أواخر حكم صلاح الدين شهدت دمياط إجراءات دفاعية جديدة وذلك فى عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، حيث تم حفر خندق دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج ، كما شهد ذلك العام أخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط ولم يبق بها سوى المقاتلة[١] .

واغلب الظن أن هذه الاستحكامات الحربية فى الثغور المصرية ارتبطت بالفكر الصليبى فى الشام والغرب الأوربى عقب موقعة حطين واسترداد بيت المقدس فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وفشل الحملة الصليبية الثالثة فى استرداد الأماكن المقدسة فى الشام من المسلمين ، حيث أدرك صلاح الدين أن الصليبيين آمنوا بأن مصر هى مركز المقاومة الحقيقية فى العالم الإسلامى ضد الحركة الصليبية ، لذا أخذ على عاتقه إحكام استحكامات مصر الحربية ، أما فيما يتعلق بنقل أهل تنيس إلى دمياط فقد تقدم أن أهل تنيس فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م خافوا من الإقامة بها ، لذا تم نقلهم فى هذه المرة إلى دمياط لقوة استحكاماتها الحربية .

والواقع أن الأمير بهاء الدين قراقوش ومن عمل معه من الصناع والفنيين فى مصر كانوا على درجة كبيرة من الخبرة الفنية ببناء الأسوار والأبراج والقلاع ، حيث قاموا بإنشاء السور حول القاهرة والفسطاط ثم قلعة الجبل ، كما أقيمت قلعة أخرى عبارة عن برج كبير عرف بقلعة المقس ، وشيدت تحصينات الثغور المصرية ، وكان هذا مما جعل السلطان صلاح الدين يسند إلى بهاء الدين قراقوش تجديد أسوار عكا فى عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م رغم أهمية وجوده فى مصر فى ذلك الوقت ، وفى ذلك يقول أبو شامة ما نصه « ففوض إليه عمارة عكا فشرع فى تجديد سورها وتعلية أبراجها وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره »[٢] .

الاستحكامات الحربية فى عهد الملك العادل والملك الكامل :

أدرك الصليبيون بعد وفاة صلاح الدين أن مصر هى مركز المقاومة الإسلامية ، وأنها

= نهاية العصر الأيوبى ، ص ٢١٠ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م . د. عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ، ص ١٠٦ ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م .

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٥ ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٩ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ .

ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

الطريق المؤدى إلى السيطرة على بلاد الشام فأخذ البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م / ٥٩٥ - ٦١٣ هـ) على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية عرفت بالحملة الرابعة ، وكان الهدف من هذه الحملة السيطرة على ميناء دمياط بسبب رغبة المدن التجارية الإيطالية فى السيطرة على تجارة البحر المتوسط[١] .

ومن ناحية أخرى ، أدرك خلفاء صلاح الدين مدى الخطر الذى يهدد مصر من ناحية الصليبيين وكان أن شهد عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م توجه السلطان العادل إلى الاسكندرية لتفقد أحوالها ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن العناية والرعاية التى أولاها صلاح الدين للاسكندرية بصفة خاصة استمرت خلال حكم السلطان العادل[٢] .

وفى عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م قام السلطان العادل بعمارة حربية عظيمة ، حيث نزل بعساكره حول قلعة الطور وأحضر الصناع من كل بلد واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة فكان فى البناء خمسمائة بناء سوى الفعلة والنحاتين ، وظل العادل مقيماً يشرف على أتمام العمارة حتى كملت القلعة[٣] .

وكان تشييد هذه القلعة العظيمة الحصينة على جبل الطور سبباً فى مقدم الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤ - ٦١٨ هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١ م ، التى اتجهت إلى دمياط بوصفها مفتاح مصر . ولكن الحملة فشلت فى تحقيق غرضها بسبب قوة التحصينات وشدة المقاومة[٤] .

والواقع أنه قد ترتب على هذه الحملة الصليبية أنشاء حصن المنصورة ، وهو بلدة على رأس بحر أشموم تجاه ناحية طلخا شيده الملك الكامل فى عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م عندما ملك الصليبيون دمياط ، حيث نزل فى موضع هذه البلدة وتحصن بها ، وشيد قصرالسكناه وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء فشيدت الدور ونصبت الأسواق وبنيت الفنادق والحمامات وأدار عليه سوراً مما يلى البحر وستره بالالات الحربية والستائر ، ولم يزل السلطان الكامل بهذا الحصن حتى انتصر على الصليبيين ودخل دمياط فسمى

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٢٩ ومابعدها .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢١٠ ، ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ترجمة الياس شاهين ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، موسكو ، ١٩٨٦ م .

(٤) المرجع نفسه : ص ٢٩٦-٢٩٧ .

الحصن المنصورة تيمناً بانتصاره على الصليبيين[١] . (شكل ٩ ، ١٠) .

وقد ترتب على هذه الحملة الصليبية أيضاً هدم تحصينات بيت المقدس الحربية ، فقد بلغ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق أن الصليبيين على عزم أخذ القدس عند توجهه إلى أخيه الملك الكامل فى دمياط ، فاتفق الأمراء على تخريبه ، كما ترتب عليها تخريب قلعة الطور[٢] الحصينة التى أنشأها الملك العادل ليتوفر من فيها من الرجال والعتاد للدفاع عن دمياط .

وكان أن شهد عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م هدم مدينة تنيس وكان أهل تنيس كما تقدم قد خافوا من الإقامة بها فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، وتم نقلهم بالفعل إلى دمياط فى عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، فقد أورد المقريزى ما نصه « ومازالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا أحصن من عمارتها إلى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستمائة فاستمرت خراباً[٣] . واغلب الظن أن تخريب مدينة تنيس كان بسبب خوف الملك الكامل من مسير الصليبيين إليها ، وهو الأمر الذى يتفق وهدم مدينة دمياط فى عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، وهو ما سوف اتناوله لاحقا .

الاستحكامات الحربية فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب :

أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب فيما بين سنتى ٦٣٨ و ٦٤١ هـ / ١٢٤٠ و ١٢٤٣ م قلعة حصينة هى قلعة الروضة لتكون مقراً له ، وتحول من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة ، وقد عرفت قلعة الروضة بقلعة الجزيرة وقلعة المقياس وبالقلعة الصالحية ، واختار الملك الصالح موضعها بعناية فهى جزيرة فى وسط بحر النيل كان أحمد بن طولون قد شيد بها حصناً فى عام ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م[٤] .

كما أنشأ الملك الصالح فى سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م مدينة الصالحية نسبة إليه لتكون

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٣١ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٣١ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ . قلعة الطور خربها الملك العادل ليتوفر من فى القلعة من المحاربين والعدد لحفظ دمياط ، والطور جبل مطل على طبرية الأردن .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٨١ ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٢ .

(٤) ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٠٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .

درعا لمصر لصد أى هجوم صليبى يفد من الأطراف الشرقية ، حيث اعتقد أن أى حملة صليبية على مصر سوف تتجنب طريق الحملة الصليبية الخامسة[١] .

وفى عام ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م بلغ السلطان الصالح نجم الدين قدوم حملة جديدة صليبية ضد مصر وكانت الاستعدادات تجرى لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا أنوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع نتيجة سقوط بيت المقدس فى أيدى الخوارزمية ، ولم يكن الهدف هو استرداد بيت المقدس فقط ، وإنما أيضاً تكوين حلف مغولى مسيحى يهدف إلى تطويق العالم الإسلامى والقضاء عليه . وهكذا كانت الحملة الصليبية السابعة التى دهمت دمياط سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م[٢] .

ويبدو أن أسوار المنصورة شهدت أهمالاً خلال الفترة بين ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م وهى السنة التى شهدت جلاء الصليبيين بعد هزيمتهم عن دمياط و ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م وهى السنة التى تملك الصليبيون فيها دمياط فقام الصالح نجم الدين بأصلاح هذه الأسوار وتدعيمها وانتقل إليها ، وجعل الستائر على السور وقدمت الشوانى تجاه المنصورة ، كما شرع العسكر فى تجديد عمائر المنصورة الأخرى المدنية والدينية التى شهدت هى الأخرى أهمالاً كبيراً[٣] .

وكان أن ملاء الصليبيون أسوار دمياط بالمقاتلة والآلات ، وفى ذلك الوقت توفى الملك الصالح بالمنصورة فحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة ، وخرج الصليبيون من دمياط إلى فارسكور ووصلوا تجاه المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم[٤] وخندقوا عليهم وأداروا على خندقهم سوراً ستروه بكثير من الستائر ونصبوا المجانيق ، والتحم القتال براً وبحراً حتى أنهزم الصليبيون فزينت القاهرة ، وقدم المعظم توران شاه واستقر

---

(١) انظر عن مدينة الصالحية . د. محمد محمد أمين على : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) ص ١٨٥، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، ١٩٦٨ م.

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٦١ ومابعدها . ميخائيل زابوروف : المرجع السابق ، ص ٣١١ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ، السلوك : جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ .

(٤) بحر أشموم : يعرف اليوم باسم البحر الصغير أحد فروع الرى الشهيرة بمديرية الدقهلية ، وكان يسمى بحر أشموم نسبة إلى مدينة أشموم طناح الواقعة عليه وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان بمركز دكرنس . ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ هامش ٥ .

بقصر السلطنة بالمنصورة ، وبعد مقتل توراه شاه تسلم الأمراء مدينة دمياط ، ورفع العلم السلطانى على سورها[١] .

وبمقتل توران شاه ، انتهت الدولة الأيوبية فى مصر ، مما أذن بقيام دولة سلاطين المماليك ، وقد اتفق أرباب الدولة بمصر وهم المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الصليبيين إليها مرة أخرى فسيروا إليها الحجاريين والفعلة ، ووقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثانى عشر من شعبان عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م حتى خربت كلها ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع ، وصار فى قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس وسموها المنشية[٢] .

وقد تقدم أن الملك الكامل محمد قام فى عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م بهدم مدينة تنيس خوفا من مسير الصليبيين إليها ، وهو الأمر الذى يتفق وما ورد هنا عن دمياط ، حيث اتفق المماليك على هدم دمياط خوفا من مسير الصليبيين إليها مرة أخرى وإنشاء دمياط الجديدة .

أزداد عمران مدينة دمياط الجديدة (المنشية) فشيدت بها العمائر الدينية من جوامع ومدارس ومساجد ، كما شيدت بها الدور التى تشرف على النيل ومن ورائها البساتين ، كما شيدت بها الحمامات ونصبت الأسواق فصارت بلدة كبيرة ، وقد وصفها المقريزى وصفاً رائعاً حيث أورد ما نصه « وهى أحسن بلاد الله منظراً ، وقد أخبرنى الأمير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمى رحمه الله أنه لم ير فى البلاد التى سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه فظننت أنه يغلو فى مدحها إلى أن شاهدتها فإذا هى أحسن بلد وانزهه »[٣] .

ومن الأعمال المعمارية الحربية التى شيدت خلال تلك الفترة لخدمة الغرض الحربى ضد الصليبيين الجسر الذى أنشأه الملك المظفر ركن الدين بيبرس فى عام ٧٠٨ هـ/١٣٠٨ م بسبب هجوم الصليبيين على دمياط ، حيث أتفق الأمراء على أنشاء جسر من القاهرة إلى دمياط خوفاً من حركة الصليبيين فى أيام النيل فيتعذر الوصول إلى دمياط[٤] .

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢١-٢٢٣ ، ميخائيل زابوروف : المرجع السابق ، ص ٣١٥-٣١٦.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ .

وقد عين لعمل هـذا الجسر الأمير أقوش الرومى الحسامى وكـتب الأمراء إلى بلادهم بخروج الـرجال والأبقار ورسـم للولاة بمساعـدة أقوش وأن يخرج كـل والـ إلى الـعمل برجال عمله وأبقـارهم فما وصل أقوش إلى ناحية فارسكـور حتى وجد ولاة الأعمال قد حضروا بالرجال والأبقار ، وقد تم الفراغ من الجسر فى نحو شهر واحد[١] .

أما فيما يتعلق بالثغور المصرية خلال تلك الفترة فإنه من المرجح أن هذه الثغور كانت موضع عنـاية ورعاية ملوك مصـر فى العصر المملـوكى البحرى بمنـشآتها الحربية والـدينية والمدنية، فقد أورد ابن بطوطة عن مدينة الاسكـندرية ما نصه «وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الـشأن الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحـسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، أكرمت مغانيها ولطفت معانيـها ، وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها »[٢] .

كما أمدنا ابن بطوطة بوصف بديع لمدينـة دمياط فى العصر المملوكى ، حيث أورد ما نصه « وهى مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب ودمياط هذه حديثة البناء »[٣] .

أثر العناصر المعمارية الحربية الإسلامية على مثيلاتها الصليبية :

وكان أن انتقلت تأثيرات هامة من العمارة والـفنون العربية الإسلامية إلى أقطار أوربا من خلال السفارات المتبادلة بين المسلمـين والصليبيين ، ومن خلال الجنود أصحاب الحرف والصناع الذين كانوا ضمـن تلك الحملات الصليبية ، فقد تأثر من عـاد من الصليبيين من هؤلاء الصناع بما رآه وانطبع فى ذهنه من تقاليد فنية عربية إسلامية وظهر أثر ذلك جلياً فى فنون العصور الوسطى الأوربية[٤] .

وقد دخلت الـتأثيرات الإسلاميـة إلى أوربا أيضاً عن طـريق جزيرة صقلـية ، وشبه جزيرة الأندلـس فقد كان من السهل أن تـعبر المنتجات والـتأثيرات العربية الإسـلامية عن طريقهما إلى بلاد أوربا كلها أضافة إلى الطريق البحرى التجارى الذى يصل موانئ الأقطار

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٢) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ١٦ ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨-٢٩ .

(٤) د. فـريد شافعـى : المرجع السـابق ، ص ٢٧٠ ، د. زكى محمـد حسن : فنـون الإسلام ، ص ٦٥٩-٦٦١ ، دار الرائد العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

العربية الإسلامية على البحر المتوسط بالثغور الأوربية على نفس البحر ومن أهمها مدينة البندقية[١] .

ومن الظواهر العربية الإسلامية التى تأثر بها الصليبيون فيما يتعلق بالعمارة الحربية ظاهرة المداخل المنكسرة ، وهى المداخل التى ينحرف الداخل فيها يميناً ويساراً مرة أو عدة مرات ، وقد استخدمت هذه المداخل فى العمارة العسكرية بغرض عرقلة اندفاع المهاجمين، وقد عرف المدخل المنكسر بالباشورة والمدخل ذو المرفق والمدخل ذو العطف ، وقد أورد المؤرخون أن مدينة بغداد كان لها أربعة أبواب من هذا النموذج اختفت آثارها مع المدينة[٢] .

ومن الظواهر المعمارية التى أدخلت على أساليب البناء العسكرية الصليبية فى بناء الأسوار زيادة سمك جدران أسوار القلاع الصليبية[٣] .

ومن هذه الظواهر أيضاً السقاطات وهى فتحات بأعلى الأسوار والبوابات يستخدمها المدافعون لأسقاط الأحجار والسوائل الملتهبة ولرمى السهام والحراب على من يحاول اقتحام تلك الأسوار أو البوابات[٤] . (شكل ١١، ١٢) .

كذلك انتقلت إلى الصليبيين فكرة القناطر المتحركة التى تصل بين الأبواب وبين ضفاف الخنادق والقنوات المحيطة بالحصون بحيث ترفع تلك القناطر عند التهديد بالهجوم، ويعد أقدم مثل لهذه الظاهرة فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده صلاح الدين عندما كان وزيراً فاطمياً ، وقد اقتبس الأوربيون هذا العنصر من العمارة العسكرية العربية الإسلامية[٥] .

وقد اقتبس الصليبيون لحصونهم من أساليب الدفاع العربية الإسلامية فكرة الأبواب

(١) د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩١ ، د. زكى محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٦٦١، د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(٣) د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٧٣ ، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ، ص ١٢٦ .

(٤) د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ ، د. زكى محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٦٦١، د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٧٠ .

(٥) د. فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

المصنوعة من القضبان الحديدية القوية المتشابكة وتنتهى من أسفلها بسنان حادة كالحراب وتنزلق بثقلها الكبير رأسياً ولا يمكن رفعها إلا بواسطة الحبال والبكرات من داخل الحجرات المعدة كذلك فوق الأبواب ، وتوجد قنوات رأسية فى أبواب قصر الأخيضر تنبئ عن أن أبواباً حديدية من ذلك النوع كانت مستعملة فيه ويسمى هذا الباب الحديدى المنزلق رأسياً[١] .

اقتبس الصليبيون من العمارة العربية الإسلامية طراز البرج المستدير فى الوقت الذى حافظوا فيه على طراز البرج المربع البيزنطى ، وكان استخدامهم للطراز المستدير فى تصميم البرج بعد موقعة حطين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م[٢] .

كذلك تأثر الصليبيون أثناء وجودهم فى الشرق باستخدام الأشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات[٣] ومن الظواهر التى وجدت فى العمارة الحربية فى بلاد الشام خلال الحروب الصليبية ظاهرة الأبواب السرية ، وقد استخدمت هذه الأبواب على سبيل المثال فى برج الظفر ، وفى قلعة حلب فى عهد الظاهر غازى بن صلاح الدين عند تجديده لها عام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م[٤] . (شكل ١٣ ، ١٤) .

(١) د. فريد شافعى : المرجع السابق : ص ١٩٦ ، ٢٧٤ .

(٢) د. عبد الرحمن زكى : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى ، ص ١٠٩-١١٠ .

Creswell (K.A.C.) Early Muslim Architecture, I, Oxford, 1932-1940 p. 336, Fig, 460; Fortification in Islam before A.D. 1250, The proceedings of the British Academy, Vol. XXXVIII, London. 1952, p. 109, Bell (G.L.) : palace and mosque At Ukhaidir, A study in Early Mohammadan Architecture, Oxford, 1914, pp. 4-7, pls. 2, 7.

(٣) د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ص ٦٧ .

Creswell : Fortification in Islam, p. 120.

(٤) د. عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٠ ، أسامة طلعت : المرجع السابق ، ص ٢٣٥-٢٣٧ .

خاتمة

وبعد فأننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألقت الضوء على الاستحكامات الحربية فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى وحتى نهاية الحروب الصليبية فى داخل البلاد وعلى حدودها . وكذلك على الدور العظيم الذى اسهمت به هذه الاستحكامات الحربية فى تأمين حدود مصر الشرقية والشمالية ضد الحملات الصليبية المتوالية على مصر .

تناولت الدراسة نشأة الاستحكامات الحربية منذ الفتح الإسلامى ، كما تناولت الاستحكامات الحربية فى الثغور المصرية خلال عهد الخليفة المتوكل فى دمياط وتنيس والفرما والظروف السياسية التى صاحبت إنشاء هذه الحصون ، كما قامت الدراسة بإلقاء الضوء على المراحل الأربع التى مرت بها أسوار القاهرة خلال الفترة موضوع الدراسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تناولت الدراسة الظروف السياسية التى مرت بها مصر فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى وأثر هذه الظروف الممثلة فى الحروب الصليبية على ازدهار الاستحكامات الحربية ازدهارا عظيما فى داخل البلاد وعلى حدودها فى الاسكندرية ودمياط والبرلس وبقية الثغور المصرية على شاطئ البحر المتوسط وفى السويس وشبه جزيرة سيناء ، وأوضح البحث أن احكام صلاح الدين لهذه الاستحكامات الحربية كان له أكبر الأثر فى تأمين حدود مصر من الجهتين الشرقية والشمالية .

ألقى البحث الضوء على النتائج التى ترتبت على الحملة الصليبية على دمياط ٦١٤ - ٦١٨ هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١ م .

ألقى البحث الضوء على الاستحكامات الحربية فى مدينة تنيس واثر الحروب الصليبية فى تخريب المدينة خلال الفترة موضوع الدراسة ، وتناول البحث أثر الحملات الصليبية على الاستحكامات الحربية فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وإنشاء مدينة الصالحية وتحصين دمياط لتأمين الجبهتين الشمالية والشرقية

ألقى البحث الضوء على أثر الحملات الصليبية فى هدم مدينة دمياط فى عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م كما هدمت من قبلها مدينة تنيس فى عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م وإنشاء مدينة

جديدة عرفت بالمنشية أو دمياط الجديدة ، كما ألقى البحث الضوء على أزدهار مدينة دمياط الجديدة أزدهاراً عظيماً خلال العصر المملوكى البحرى .

ألقى البحث الضوء على أهم الأعمال الحربية المعمارية التى شيدت خلال العصر المملوكى أيام الحروب الصليبية ، وازدهار الثغور المصرية ازدهارا عظيما خلال العصر المملوكى البحرى .

تناولت الدراسة أثر العمارة الحربية الإسلامية على العمارة الحربية الصليبية فى المداخل المنكسرة ، وزيادة سمك الجدران فى أسوار القلاع الصليبية ، والسقاطات والقناطر المتحركة ، والأبواب المنزلقة رأسياً والأبراج النصف دائرية ، واستخدام الحمام الزاجل ، والأبواب السرية .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

- ابن الاثير (أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م :

* الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء فى ٦ مجلدات ، طبعة التحرير ، القاهرة ، ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م .

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م :

* تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م :

* النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والأرشاد القومى .

- ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد) ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م :

* الرحلة ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .

- ابن دقماق (إبراهيم محمد بن ايدمر العلائى) ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م :

* الانتصار لواسطة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها ، الجزء الرابع والجزء الخامس ، بولاق ، القاهرة ١٣١٠ هـ / ١٩٧٢ م .

- ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى بن محمد بن عبد الملك) :

* النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، تحقيق د. حسين نصار ، دار الكتاب ، القاهرة ١٩٧٠ م .

- ابن شداد (القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رفيع) ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م:

* النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، مطبعة الأداب والمؤيد ، مصر ١٣١٧ هـ .

- ابن عبد الحكم (أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م :

* فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

- أبو شامة (شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى) ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م :

* الروضتين فى أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت .

- البلوى (أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى) :
* سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، مكتبة الثقافة الدينية .
- المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى) ت حوالى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م :
* أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م :
* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م .
* السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر د. محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية .
- ياقوت الحموى (شهاب الدين ابن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م :
* معجم البلدان ، طهران ، ١٩٦٥ م.

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

- د. إبراهيم أحمد العدوى :
* مصر الإسلامية ، وزارة الثقافة ، هيئة الآثار المصرية .
- د. أحمد فكرى :
* مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل وجزآن ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٢-١٣٨٩ هـ / ١٩٦٢-١٩٦٩ م .
- أسامة طلعت عبد النعيم خليل :
* أسوار صلاح الدين وأثرها فى أمتداد القاهرة حتى عصر المماليك مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٩٢ م .
- پول كازانوفا :
* تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة د. أحمد دراج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

- د. جمال محمود مرسى :

* من جديد حـول حصن الخليفـة المتوكل على الـله العباسى بـدمياط ، مجلة الـتاريخ والمستقبل ، المجلد الرابع ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ١٩٩٤ م .

- د. حسن الباشا :

* مدخل إلى الآثار الإسلامية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

- د. حسين مؤنس :

* اطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

- د. زكى محمد حسن :

* فنون الإسلام ، دار الرائد العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

* الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريـخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ م .

* شخصيـة الدولة الفاطمـية فى الحركة الصلـيبية ، المجلة الـتاريخية المصـرية ، المجلد السادس عشر ١٩٦٩ م .

* الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٢ م .

- د. صادق محمد طه :

* دراســة معمارية تحـليلية لـقلعة الجبـل (صلاح الدين) بالـقاهرة ، مخطـوط رسالة ماجستير ، جامعة حلوان ، كلية الفنون الجميلة ١٩٨٣ م .

- د. عبد الرحمن زكى :

* العمارة الـعسكرية فى الـعصور الوسطى بـين العرب والصليـبيين ، المجلة التـاريخية المصرية ، المجلد السابع ١٩٥٨ م .

* قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ م .

* القاهرة تاريخها وآثـارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، الدار المـصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

* القلاع فـى الحروب الصليـبية ، المجلة التـاريخية المصـرية ، المجلد الخامـس عشر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

- د. عبد المنعم ماجد :
* الناصر صلاح الدين ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م .

- د. على بهجت ، البير جابرييل :
* حفريات الفسطاط ، ترجمة على بهجت ومحمود عكوش ، القاهرة ، ١٩٢٨ م .

- على باشا مبارك :
* الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠-١٩٩٤م.

- د. علية عبد السميع الجنزورى :
* غارات أوربا على الشواطئ المصريـة فى العصور الوسطى (تاريخ المصريين ٥) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م .

- د. فريد شافعى :
* العمارة العـربية فى مصر الإسلاميـة ، عصر الولاة ، المجلد الأول ، الهيـئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .

- د. محمد جمال الدين الشيال :
* الاسكندرية ، طوبغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى ، أكتوبر ١٩٤٩ م .

- د. محمد حمدى المناوى :
* الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، دار المعارف بمصر .

- د. محمد محمد الكحلاوى :
* آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربـة والأندلسيين ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

- د. محمود سعيد عمران :
* تاريخ الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٠ م .

- د. مصطفى عبد الله شيحه :
* الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى نهاية العصر الأيوبى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

- د. منى محمد بدر :
* أثر الفن السلجوقى على الحضارة والفن فى العصرين الأيوبى والمملوكى فى مصر ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٩١ م .
- مولر :
* القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد الجلاد ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ميخائيل زابوروف :
* الصليبيون فى الشرق ، ترجمة الياس شاهين ، موسكو ١٩٨٦ م .
- د. وفاء محمد على :
* جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين ، المكتب الجامعى الحديث ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١ م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- Bell (G.L.) :
* Palace and mosque At Ukhaidir, A study in early Mohammadan Architecture, Oxford, 1914.
- Creswell (K.A.C.) :
* The Muslim Architecture of Egypt, II, Ayyubids and early Bahrite Mamluks, Oxford, 1959.
* Early Muslim Architecture, I, Oxford, 1932-1940.
* Fortification in Islam before A.D. 1250, the proceedings of the British Academy, Vol. XXXVIII, London, 1952.
- Devonshire (R.L.) :
* L'Egypte Musulmane et les Fondaturs de ses monuments, Paris, 1926.
- Lane Poole (S..) :
* A history of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.

مقياس الرسم ١ : ٥٠٠٠٠٠٠

شكل (١)

خريطة للثغور المصرية على البحر المتوسط عن د. حسين مؤنس مع إضافة الباحث الاستحكامات الحربية

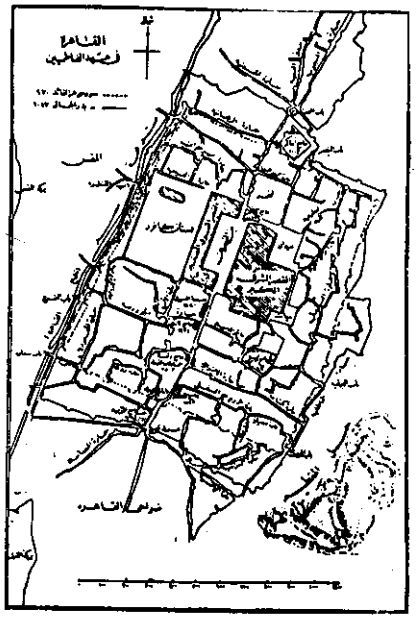

شكل (٢)

خريطة لأسوار القاهرة الفاطمية عن د. عبد الرحمن زكى ، القاهرة شكل (٢)

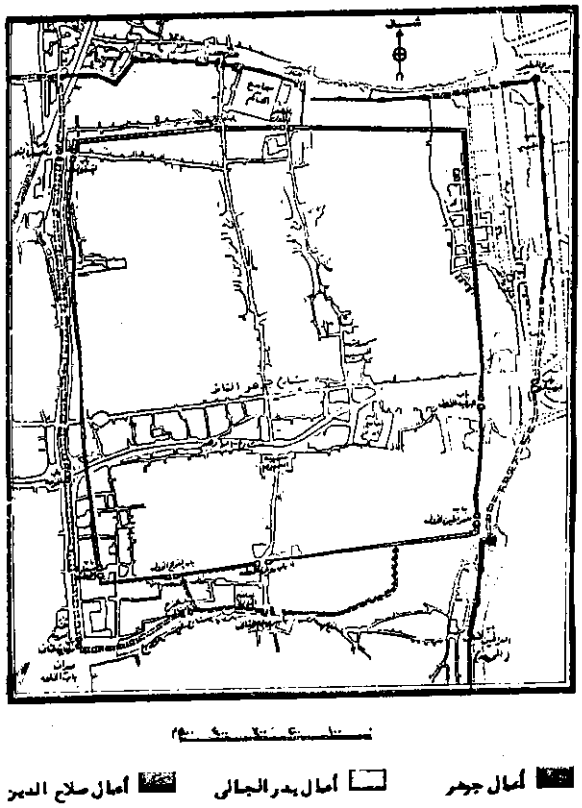

شكل (٣)

أسوار القاهرة وأبوابها قام بتعريبه أسامة طلعت عن كريسويل ، جـ ١ ، شكل ١٠ .

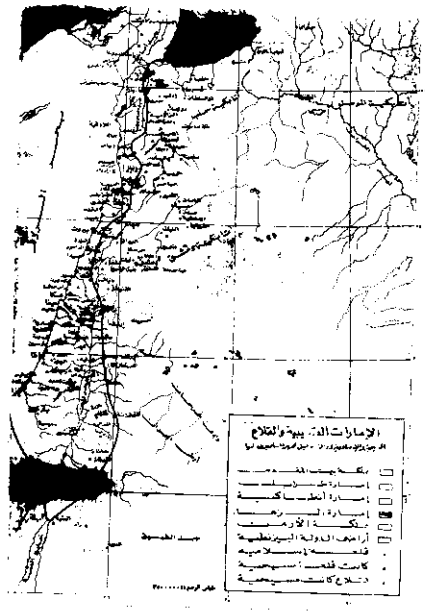

شكل (٤) الامارات الصليبية والقلاع عن د. حسين مؤنس

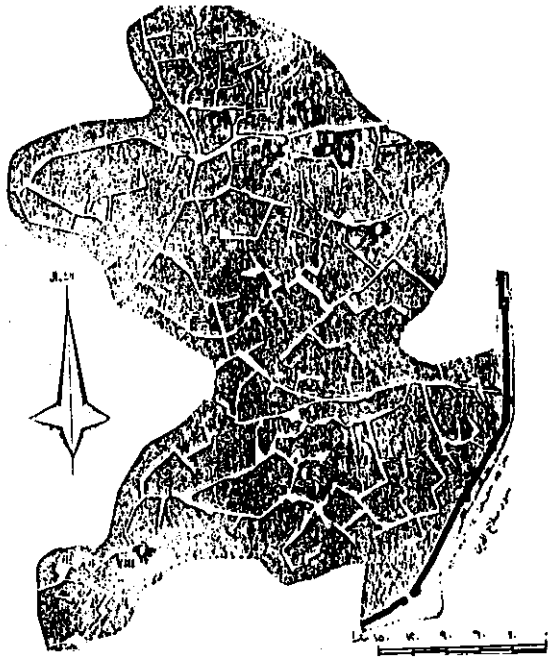

شكل (٥)

جزء من سور صلاح الدين بالفسطاط عن على بهجت ، البير جبريل ، شكل ٣ .

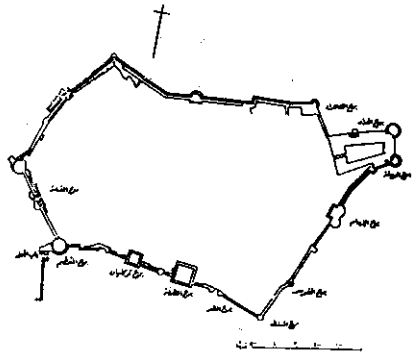

شكل (٦)

أسوار قلعة صلاح الدين عن د. أحمد فكرى ، شكل ٢ .

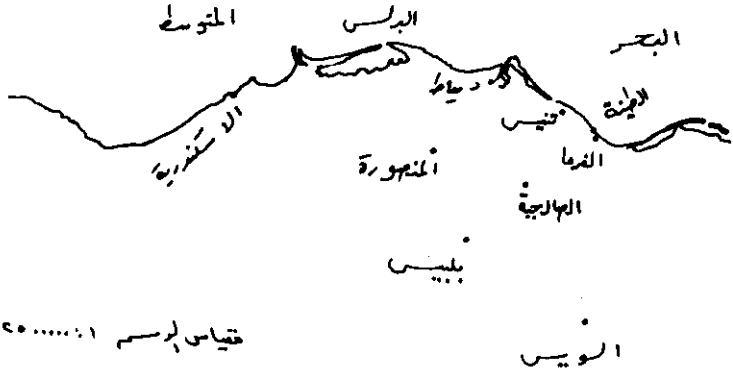

شكل (٧)

خريطة مصر الإسلامية فى العصور الوسطى عن د. حسين مؤنس مع تركيز الباحث على الاستحكامات الحربية فى العصر الأيوبى

شكل (٨)

رسم تخطيطى لقلعة صلاح الدين فى شبه جزيرة سيناء عن

د. عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين

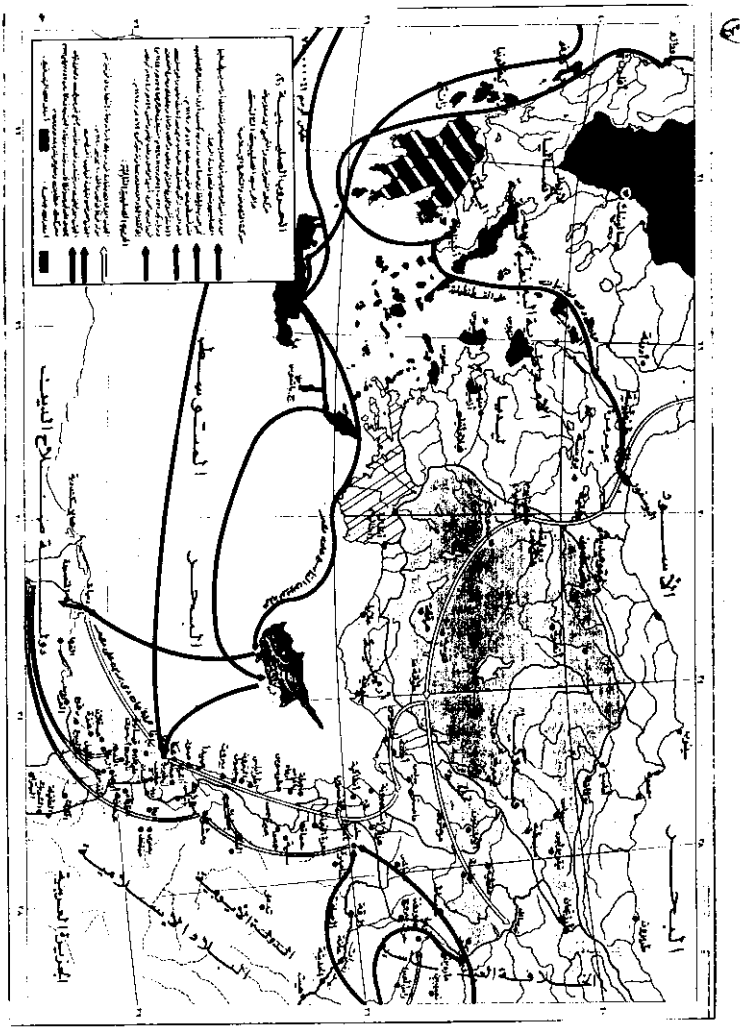

شكل (٩)

خط سير الحملة الصليبية الخامسة من دمياط إلى المنصورة عن د. حسين مؤنس .

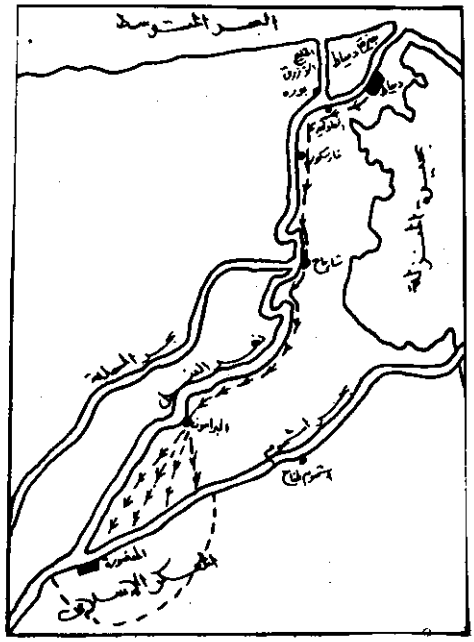

شكل (١٠)

خط سير الحملة الصليبية السابعة من دمياط إلى المنصورة عن د. محمود سعيد عمران .

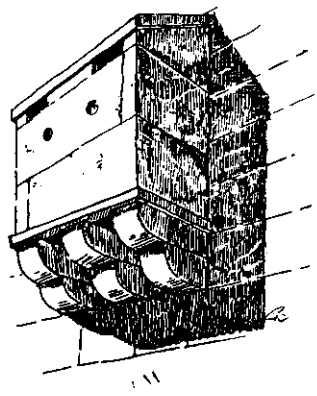

شكل (١١)

تصميم سقاطة عن د. فريد شافعى ، شكل ٩٢ .

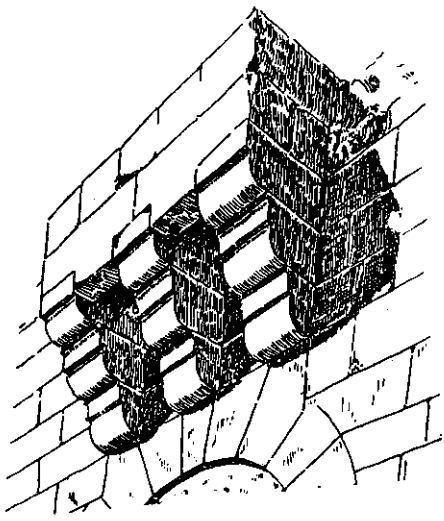

شكل (١٢)

سقاطة من قصر الحير الشرقى عن د. فريد شافعى ، شكل ١٣٦ .

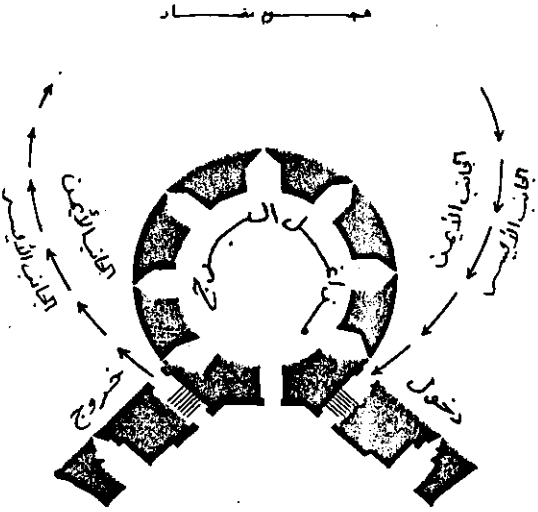

شكل (١٣)

رسم توضيحى يبين الغرض من عمل بابين سريين ببرج الظفر عن أسامة طلعت شكل ٦٨ .

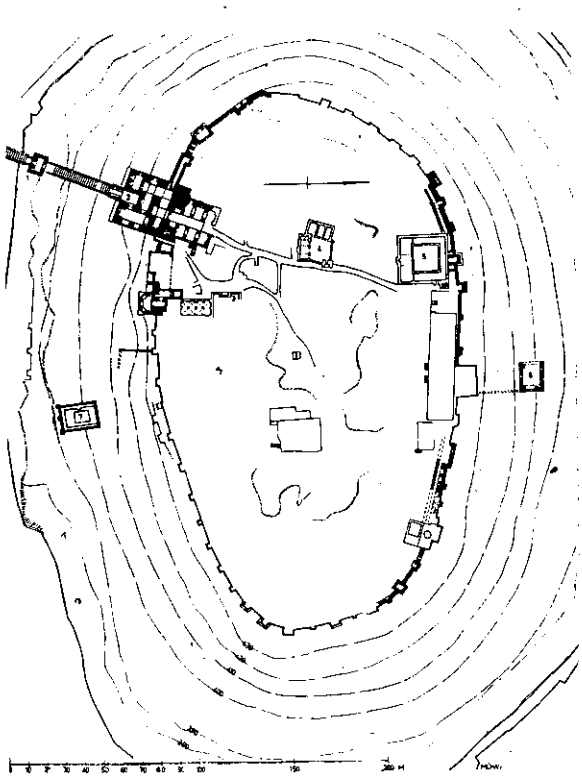

شكل (١٤)

رسم تخطيطى لقلعة حلب عن مولر ، القلاع ، مخطط ١٨ .

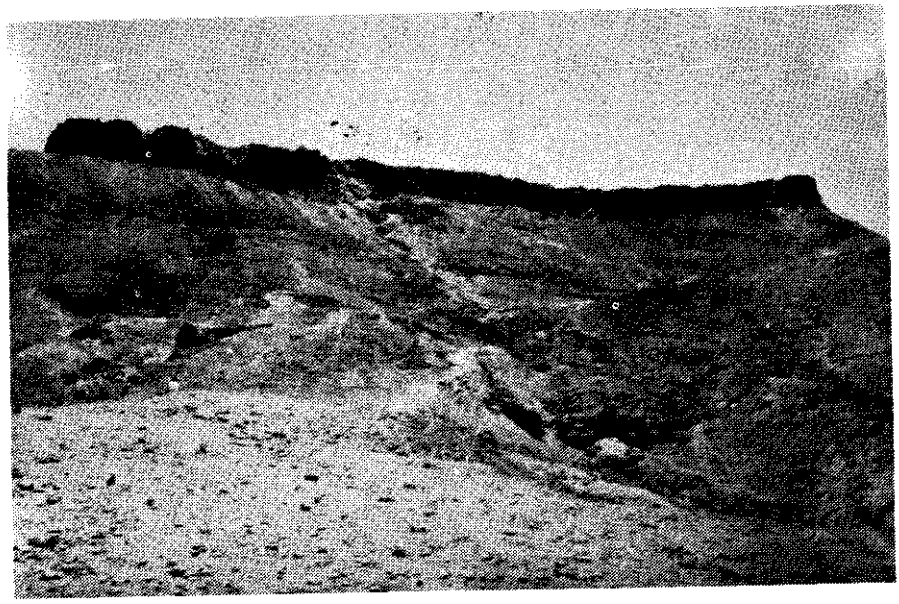

لوحة (١)

امتداد السور الخارجي لقلعة صلاح الدين برأس الجندى .

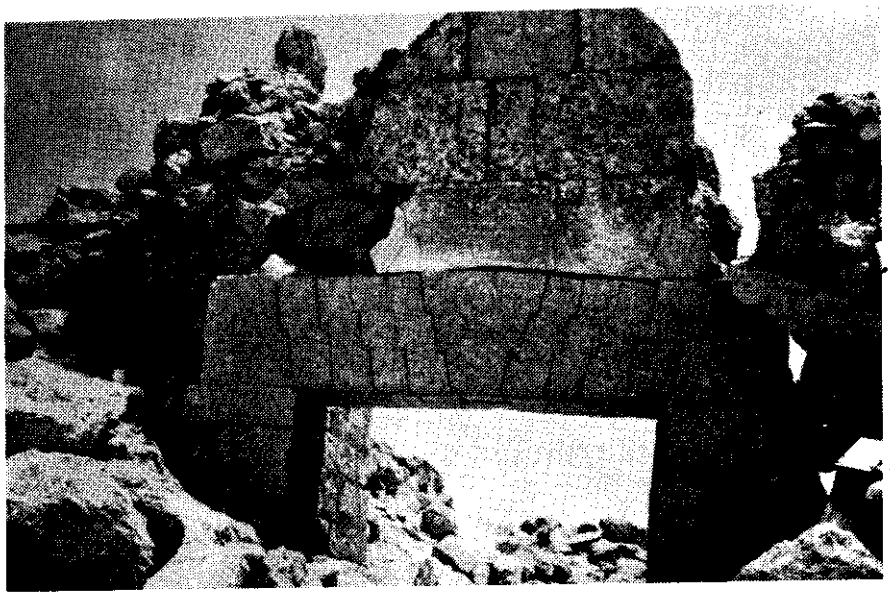

لوحة (٢)

المدخل الرئيسى لقلعة صلاح الدين برأس الجندى ويظهر النص التأسيسى .

لوحة (٣)

التل الجنوبى لقلعة صلاح الدين بجزيرة فرعون ويظهر السهل الأوسط

كما تظهر شرافات المسجد

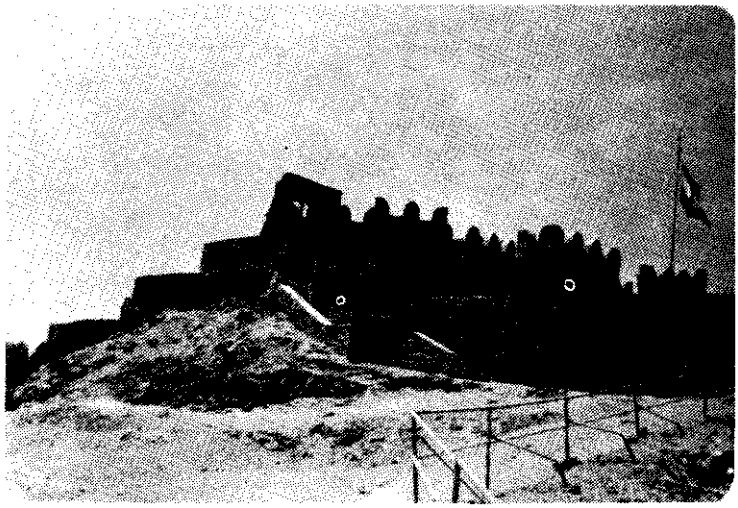

لوحة (٤)

سلم صاعد للأبراج العليا فى قلعة صلاح الدين بجزيرة فرعون